الصحافة المصرية

هل الصحف مرآة معبرة .. أم موجهة مؤثرة .. ؟

للاستاذ محمود الشرقاوى

قامت فى الأشهر الماضية غضبة من جهات ومن هيئات لها نفوذ ولرأيها وزن فيما اصطلح على تسميته « بالصور الخليعة » التى أسرفت صحف معينة فى نشرها ، حتى أمر وزير الداخلية بتذكير الصحف بما يمنع نشر هذه الصور من القوانين ، وتذكيرها واجبها فى رعاية الأخلاق والتقاليد وعدم الانسياق وراء المنافسة أو الربح أو التقليد ونسيان ما يجب رعايته من الملابسات والاعتبارات الخاصة . وما يزال أثر من هذه القضية قائما عند بعض هذه الجهات وفيما ينشره بعض الكتاب والعلماء فى ذلك .

ومع شعورى بشىء من الحرج إذ أعالج هذا الموضوع ، فقد غلبتنى الرغبة الغالبة فى أن أكتب فيه ، وإن كنت سأتناوله من ناحية أخرى لا تقل فى نظرى أثرا عن موضوع هذه الصور الغير المرغوب فيها .

* * *

الذين لا يرون بأسا ولا خطرا من نشر ما يجرى فى جميع نواحى الحياة المصرية والعالمية من ألوان النشاط الاجتماعى يقولون إن الصحافة مرآة للحياة بألوانها المختلفة جميعا ، وكما تحرص الصحف على أن تنقل لقرائها صورة « صادقة » من ألوان النشاط المصرى والعالمى فى السياسة والاختراع والعلم والاقتصاد والأدب مثلا ، فمن تمام واجباتها أن تنقل إليهم هذه الصورة الصادقة من ألوان النشاط الاجتماعى .

فإذا كانت هذه الصورة الصادقة من ألوان النشاط الاجتماعى لا ترضى جهة من الجهات أو جماعة أو هيئة لها مقاييس خاصة وفهم خاص ومنهج للحياة خاص أيضا ، فليس الذنب فى ذلك واقعا على الصحافة التى نقلت الصورة ، فانما هى تسجل ما يقع ويحدث .

ومما يقال فى ذلك إن هذا اللون من الحياة الاجتماعية يكاد أن يكون مشتركا ومتماثلا فى حيوات جميع الطبقات العليا فى الأمم الراقية ، وقد يؤخذ دليلا على تقدمها ومقدار ما بلغته من حضارة ورفاهية . وما دمنا نقول إن مصر قطعة من أوربا أو يجب أن تكون قطعة منها ، فان هذا اللون من الحياة هو مما تصبو مقاومته؛ ومن الأفضل أن تتجه فيه الجهود إلى التهذيب وترقية الذوق العام وترفيه النفوس ، بدلا من القسر والقهر والأعنات والمنع بقوة القانون لما لا يمكن أن يخضع لقانون .

لست فى هذا الذى أقوله مدافعاً عن وجهة نظر معينة ، ولكنى مقرر لهذه الوجهة من النظر ملخص لها لأستخدمها فيما أريد أن أصل إليه فيما يلى :—

* * *

الصحافة المصرية على وجه العموم ناجحة إلى حد كبير وصادقة فى التعبير عن الحياة المصرية والأمانى المصرية ، كما هى ناجحة وصادقة ومستوفاة عندما تعطى صورة عن التيارات العالمية

الطاهرة ، وهذه البقعة قطعة من صميم مصر الخالدة . فلا تؤاخذنى أيها القارىء ولا تحرجنى فى موقفى وثباتى ولا تحاسبنى على خطواتى واشاراتى ، فما أنا إلا بشر تشبع نفسه حوادث التاريخ وآثار القرون الماضية وأرى الجمال فى كل شىء ، وأراه ممثلا فى هذه البقعة بالذات . ولست أبالى بما أوصلك إليه عقلك وفكرك وعلمك من أشياء فأنت تقطع نفسك وتتجه الاتجاه الذى يرضيك ويرضى انقطاعك عن ماضيك وتنكرك لحاضرك ، أما أنا فأعرف نفسى وأعرف الخواطر التى تجول فى قلبى فأعبر عنها بهذا الكلام وأضع كل ذلك تحية لصاحبة هذا المقام التى قال عنها القدماء نفيسة العلم السيدة الطاهرة العالية القدر الرئيسة ...

هم أهل ميراث النبى إذا اعتزوا ... وهم خير قادات وخير حماة
ملامك فى أهل النبى فانهم ... احباى ما عاشوا واهل ثقاتى

أحمد زمزى

مراقب عام مصلحة التشريع التجارى والملكية الصناعية

٣٤ ، ٤٢

والاتجاهات الواضحة والغامضة للسياسة الدولية ، بل جميع ما يتفاعل فى هذا العالم المضطرب المتقلقل من المؤثرات والعوامل المختلفة والمتباينة بل المتناقضة .

ولكن هناك ناحية فى الصحافة المصرية تشغل بالى وأعتقد أنها كذلك تشغل بال كثيرين من المفكرين الذين يريدون أن تشغل أذهان الناس بالنافع والمفيد على الدوام وليس بما يسليهم فقط ويزجى فراغهم .

وقد كتبت أن هذا يشغل البال ، ولكنى أريد أنه يقلق البال ولا يشغله فقط . ولست أريد أن أحدد مسؤولية ذلك ، أهى واقعة على بعض الصحف ، أم على بعض الكتاب ، أم على الجمهور القارىء ، أم هى موزعة مشتركة بينهم جميعا أو بين هذه الصحف وهؤلاء الكتاب فقط ، لا أحدد مسؤولية ولكنى أنبه إلى ظاهرة .

والصحف المصرية على كثرتها وابتكارها وجمال رونقها يشغل بعضها صفحات منه بأشياء من المعلومات والمقالات والصور قد تكون شيقة وقد تكون جذابة وقد تكون مبتكرة بارعة ، ولكنها يمكن أن توصف فى كثير منها بعدم التعمق والبعد عن الجدية . وأنا أتكلم عن ناحية الأدب والفكر فقط .

وبينما الصراع الفكرى والسياسى والاقتصادى والمذهبى يكاد يقتحم على جميع الناس بيوتها وأمورها وخاصة حياتها ويستولى على عقولها ، نجد كتابا فى مصر يلجؤون إلى قصص مترجمة أو موضوعة مما يلبى الرغبات السهلة العاجلة أو يتملق الغرائز عند الشباب من النوعين ، وآخرين يفتشون فى بطون الكتب للبحث عن كلمة أو نقل « طرائف » لا تحرك الذهن ولا تشغله بالتفكير فى هذا العالم وما فيه . ولا بالتفكير فى حياتنا المصرية هذه وما فيها ، وهو كثير .

ولا أنكر أن هذا لون لابد منه من ألوان النشاط الأدبى ، ولكنى أكاد لا أجد الآن من يشتغل بسواه أو بما يماثله فى القيمة من الكتاب — إلا من ندر —

وقد نشرت فى « الأهرام » منذ شهرين مقالا أعتقد أن فيه تفكيرا وآراء تعرض للبحث والافادة ، ولكن وجلا ، مفروض أنه من خاصة المثقفين ، يبادر فيسألنى — لا عن رأى أو فكرة — ولكن ليسألنى عن كلمة « نضوج » هل بحثت عنها فى القاموس لأعرف أنها واردة فيه أم لا ... ؟

وهذا هو الفراغ ، فراغ الذهن .

هذه الأمور الجدية التى تشغل — أو يجب أن تشغل — المفكرين فى مصر من الأدب والفن والإصلاح ، أحد كثيرين من الخاصة والمثقفين يتحدثون فيها ويشغلون نفوسهم وعقولهم بها ولكنى أجد أثر ذلك فى الصحف المصرية قليلا ، وبعض الصحف يراعى الكثرة الغالبة — مع رأى خاص فيها — فهى فى اعتقادى ليست معبرة تمام التعبير عن هذه الناحية من نواحى النشاط والتفكير المصرى ، وليست « مرآة » واضحة لها . وكثيرون من المفكرين والمشتغلين بالجد من الأمور يتحرجون من الكتابة لبعض الصحف اعتقادا منهم بأنها تتقبل أو تنشر لمستوى خاص ، وتعنى بالمظهر دون الجوهر ، وتبحث عن الكم لا عن الكيف .

وبقى أن نقول : هل الصحف تكتفى بأن تكون « مرآة » ناقلة معبرة فقط ! أم هى دافعة موجهة مؤثرة ... ؟

وربما كان قصور هذه الظاهرة على الناحية الأدبية والاجتماعية والفكرية سببه اتصال هذه النواحى خاصة بتفكير الجماعة وما يلابس حياتنا من التقاليد وبعض الأمور الأخرى .

أما وأنا أكتب هذه الكلمة صحف ومجلات فيها مقالات لكتاب لهم اسم لامع ولهم ألقاب كبيرة ولكنها تتناول مواضيع وأمورا مما يقال إنه يقرأ عادة عقب الغداء أو قبل النوم للتسلية و « قتل الوقت » . وبين يدى وأنا أكتب هذه الكلمات مجموعة أعتز بها من جريدة « السياسة الأسبوعية » من بدء صدورها (سنة ١٩٢٦) إذا قلبت صفحة من صفحاتها لابد أن تجد بحثا جديا مدروسا فى الأدب « أدب الفكرة » لا أدب ، الفراغ أو فى الإصلاح أو الاجتماع يستفيد منه قارئه فائدة لذهنه وعقله وتفكيره وثقافته . ولدى مجلات أخرى كانت تصدر لخدمة الفكر والإصلاح والتقدم ثم توقفت لأنها لم تساير التيار الجارف المكتسح من الصحافة التافهة الرخيصة ، وما تحول منها إلى أداة لهو وسخف ظل منتظم الصدور دائم « التقدم »

وعندما نقارن بين صحف كهذه كانت تصدر منذ ربع قرن